جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي
معهد العلوم الإسلامية

السنة أولى جذع مشترك السداسي الثاني

الدرس الأول:

مدخل إلى دراسة عصر الخلافة الراشدة

- نظام الخلافة:

كانت فكرة الأمة الواحدة، والدولة الواحدة التي تسودها أحكام الشريعة في داخلها، والرغبة القوية في تبليغ رسالة الإسلام خارج حدودها قد تمكنت من النخبة المسلمة عندما واجهت الحادثة الأليمة التي تمثلت بوفاة الرسول ﷺ، وقد عبر أنس بن مالك عن أثر الحادث في النفوس: "لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا"، ولفرط الذهول كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، ولكنه أُرسل إليه كما أُرسل إلى موسى بن عمران، فلبث عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم، وأخذ بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله إلا ضربته بسيفي هذا". وطلب الناس لسالم بن عبيد الأشجعي أن يدعو أبا بكر ﷺ، فرآه في المسجد فأخبره خبر الوفاة، فدخل أبو بكر على عائشة وكشف عن وجه النبي ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، ثم قبله وبكى، وقال: " بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتا"، ثم خطب الناس معلنا الوفاة: "ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"، واستشهد بالقرآن، قال تعالى: ﴿ ﴾. وقد ظهر في الموقف رجحان علم الصديق، ورباطة جأشه، وشجاعته، وجرأته، وقوة رأيه.

ورغم الذهول الذي أصاب النخبة وعامة المسلمين فإن أهمية إقامة السلطة في الإسلام؛ جعلتهم يتحركون في اتجاه اختيار الحاكم قبل أن ينتهوا من تشييع الجسد الشريف إلى مثواه. وقد يقف خلف هذا التحرك السريع إدراك النخبة بخطورة الأوضاع المحيطة بالكيان الإسلامي الذي مضى عليه عقد واحد من السنين، تأسست فيه الدولة واتسعت رقعتها وكسبت أنصارا لها داخل المدن الحجازية الثلاث خاصة في حين بقيت القبائل الكبيرة في أعدادها والمنتشرة في البوادي والصحراء تحيط بالمراكز الإسلامية من كل مكان.

وكانت الضوابط الشرعية لاختيار المسؤول الأول للدولة تنحصر في قرشيته ومكانته التي يحددها قدمه في الإسلام، وخدمته للدعوة وللدولة، ومنزلته لدى النبي صلى الله عليه وسلم، وإمكان إجماع الأمة أو أكثرها على شرعية توليه لرئاسة الدولة وخلافة النبوة. وكانت النخبة تتمثل في المهاجرين الذين تطلعوا إلى أبي بكر رضي الله عنه، وبعضهم كان منشغلاً مع علي رضي الله عنه بتشييع النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الأنصار الذين التفوا حول زعيم الخزرج سعد بن عبادة ؟

- مؤتمر السقيفة:

السقيفة تعني الظلة، وهي شبه البهو الواسع الطويل السقف. كان لبني ساعدة بن كعب بن الخزرج ظلة يجلسون تحتها هي دار ندوتهم لفصل القضايا، تقع في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي، بين مساكن قبيلة بني ساعدة الخزرجية، اشتهرت بسقيفة بني ساعدة. وكان دار سعد بن عبادة قريبا من هذه الظلة، وقد اجتمع فيها الانصار ليبايعوا سعد بن عبادة خليفة بعد وفاة النبي، فالأنصار هم السكان الأصليون للمدينة، وقد آووا المهاجرين ونصروا الإسلام بأرواحهم وأموالهم، وهيأوا له فرص الاستقرار والانتشار، وعرفوا بإيثارهم وصبرهم وجهادهم وتضحياتهم، أفلا يكون لهم الحق في رئاسة الدولة ورعاية الإسلام.

ولما بلغ خبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة إلى المهاجرين؛ فانطلق أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى السقيفة حيث الأنصار، وانضم إليهما أبو عبيدة بن الجراح في الطريق. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان، وهما؛ عويم بن ساعدة ومعن بن عدي، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم؛ فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة فقلت: ماله؟ قالوا: يوعك.

وقد حدث نقاش طويل بين المهاجرين والأنصار حول أحقية كل طرف بتولي الخلافة. وقد بين أحد الأنصار أحقيتهم بقوله: "أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر". أما المهاجرون فتكلم عنهم أبو بكر الصديق بحلم ووقار وبديهية، فقال: "ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش،

هم أوسط العرب نسبا ودارا ... يا معشر الأنصار إنا والله ما ننكر فضلكم، ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا، ولكنكم عرفتم أن هذا الحي من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا على رجل منهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فاتقوا الله ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث في الإسلام".

وقد طرح عدد من الأنصار فكرة تعيين أميرين أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار، ولكن أبا بكر رضي الله عنه قال: "لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء". وقال عمر: "سيفان في غمد واحد! إذا لا يصلحان". وهنا تدخل كاتب الوحي زيد بن ثابت وهو من الخزرج فقال: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين، ونحن أنصارهم كما كنا أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم". فقال أبو بكر: "جزاكم الله خيرا من حي يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم". وهكذا فان الخزرج هم الذين قاموا بالتنازل إتباعا للحق ومراعاة للمصلحة الإسلامية، ولم يكن التنازل بسبب عدم رغبة الأوس في تولي الخزرج الخلافة، كما يزعم أبو مخنف.

- الاستخلاف والبيعة:

قد جرى الترشيح بعد أن استقر الرأي على استخلاف أحد المهاجرين، فرشح أبو بكر أحد اثنين، عمر وأبي عبيدة. فقال عمر: "بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم". وذكّر بفضل أبا بكر قائلا: "ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر أن صلي بالناس، فأيّكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر". وذكرهم بموقفه في حادثة الهجرة، ثم بايعه عمر وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار.

ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه حريصاً على الإمارة بل كان كارهاً لتوليها لما يعلمه من عظم المسؤولية أمام الله تعالى، وخوفه من التقصير فيها، رغم أن الصحابة كانوا يعلمون أنه أحقهم بها، وأقواهم عليها، وقد صارح أبو بكر المسلمين بمشاعره مرارا: "والله ما كنتُ حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط، ولا كنت راغبا فيها، ولا سألتها الله عز وجل في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، ومالي في الإمارة من راحة.. ". وقد عرفت بيعة أبي بكر في السقيفة بالبيعة الخاصة وكانت يوم الاثنين 12 من شهر ربيع الأول سنة 11هـ، وفي اليوم التالي الثلاثاء خرج إلى المسجد فبايعه الناس فيما عرف بالبيعة العامة بعد خطبة

ألقاها عمر بن الخطاب اعتذر فيها عن موقفه من حادثة الوفاة النبوية وإنكارها، وبين مكانة أبي بكر في الصحبة والهجرة، وأبو بكر صامت لا يتكلم، حتى انتهى عمر من خطبته وطلب من أبي بكر الصعود إلى المنبر لتلقي البيعة من الناس. وعن طريقة البيعة، يجتمع عليه العصابة فيقول لهم: "بايعوني على السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمير". وبعد البيعة العامة هذه، خطب أبو بكر في الناس خطبة وجيزة، بين فيها علاقة الحاكم بالمحكومين. والحق أن انتخاب أبي بكر للخلافة يوضح استعلاء قيم الإيمان وخضوع مقاييس الشخصية لها، لأن أبا بكر من تيم، وتيم من أضعف عشائر قريش.

وفي شأن غياب علي بن أبي طالب عن البيعة الخاصة؛ فتدل الروايات الصحيحة على غضب علي بن أبي طالب لعدم استشارته في أمر الخلافة، بل تشير رواية على أن بيعته تأخرت ستة أشهر؛ لعدم استجابة الصديق لطلب فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم أن ترث "ما أفاء الله على رسوله بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر"، واحتج أبو بكر بحديث: "لا نورث ما تركنا صدقة". وقد جمع ابن كثير وابن حجر بين الروايات الصحيحة، بأن علياً بايع أول الأمر مع الناس، ثم بايعه بعد وفاة فاطمة تأكيدا للأولى وإزالة لما حدث من جفوة؛ بسبب الاختلاف حول الميراث.